«المرأة.. والأدب»

سميرة بنت الجزيرة العربية

«وراء الضباب» ولغة الرواية في أدب المرأة العربية

لقد عرفت الحب.. قبل أن تعرف الله، أحبت كل شيء.. أمها.. أباها.. أخواتها.. أحبت الناس جميعاً:

أحبت الليل والنهار...

أحبت القمر والشمس...

أحبت الأرض والزرع...

أحبت الفن والموسيقى...

أحبت الحياة كلها...

وتساءل الناس عما ينقصها...؟

لماذا هي تعيسة...؟

وتعجَّلت الخلوة إلى نفسها والإيواء إلى حجرتها، وأخذت تنظر إلى الورق الأبيض النقي، كأنما تريد أن تستنبىء نقاءه وصفاءه، عما يمكن أن يكون لهما من سر أو حديث.. وأي عجب في ذلك؟

فقد اتخذت من الورق صديقاً أميناً، ولا بد للصديقين من تبادل الود والحديث، والثقة والأسرار، وأخذت القلم عازمة.. حازمة كأنما تريد أن تحطم الثلوج المتراكمة في أعماقها.

إن نقاء هذا الورق الخالي من كل سر، لا يعادله إلاّ نقاء نفسها التي تريد أن متحدث عنه، وتسطر عليه حروفاً من النور والحياة.. والعطاء، وكلمات من الحب.. والبذل.. والتضحية.

إنها قصة تحكي عن «ساكنة».. التي كانت أسرتها موفورة الثراء. في عيشها كثير من الرغد والنعيم، وكان لها أخوان يدرس الأول في كلية الطب.. والثاني في كلية الحقوق.

ومرت الأعوام عليهم جميعاً ضاحكة.. باسمة، ثم مات الأب وترك لهم ثروة طائلة.

وفي عام ١٩٤٨م نشبت الحرب بين الإسرائيليين والفلسطينيين، وذهب أخوها الكبير متطوعاً للخدمة الطبية في بعض المستشفيات القريبة من الحدود الفلسطينية.

ذهب ولم يعد..

وكسبت إسرائيل المعركة.. وشرد الفلسطينيون عن بلادهم.

وجاءهم النبأ باستشهاد أخيها.

وعندئذٍ عرفت «ساكنة» معنى الحرب، وأحست بآلامها، وجن جنونها لفقدان أخيها.. وبكت بحرقة كما لم تبكِ في حياتها.

وغرقت الأم في بحر من الدموع.

انقضت أيام ملؤها الحزن.. والبؤس.. والشقاء.

وكبرت «ساكنة» مع الأيام ـ يمزق الحزن قلبها، ويحيط بها الحزن القاسي والألم العميق من كل جانب.

وعندما بلغت الخامسة عشرة من عمرها، جاءها عمها بعريس موفور الثراء يقيم بالسعودية، ووافقت أمها.. وباركت هذا الزواج.

وزُفَّت «لماجد» ومرت الأيام قاسية.

لقد كان «ماجد» حاد الشخصية ـ أنانياً، لا يهمه من الحياة غير إرضاء نفسه وأهوائه.. وامتلأ قلبها حزناً.

ولم تبح لمخلوق بما في هذا القلب من عذاب، وعاشت أعواماً محطمة القلب خائبة الأمل.. ملتاعة النفس، وأنجبت غلاماً أسمته «ماهراً».

وفي سبيل إبقاء حياتها الزوجية قائمة من أجل ابنها «ماهر» احتملت أقسى ما يمكن أن تتحمله امرأة من مشقة وجهد، عرفت خيانات زوجها المتكررة. فلم تحس بثورة جامحة، وإنما أحست ألماً لاذعاً، وتبينت إثمه، فلم تتحدث إلى نفسها بالقطيعة، وإنما تحدثت إلى نفسها بالفرار إلى منزل أمها ببيروت.. حيث تستريح وتستجمّ، ثم تستأنف الجهاد لاكتساب هذا القلب الذي أخذ يفلت منها.. ويهيم بغيرها.

وكانت أثناء هذه الأسابيع التي تخلو فيها بعيدة عن بيتها، يغلبها الشوق لابنها.. «ماهر» فتعود مستسلمة إلى زوجها الخائن، المستسلم لنزواته الطائشة.

وإن كانت لم تنسَ خيانته، ولم تعفُ عنها في قرارة نفسها، ولكنها اتخذت لها من قلبها زاوية أقرتها فيها.. وألقت بينها ستاراً..

واستجابت لنداء الأمومة.. فألقت بنفسها في نار مضطرمة، ووجدت في الاحتراق بهذا الجحيم نعيماً «أي نعيم»!.

أهم شيء أن تكون بجوار فلذة كبدها، وأفاقت يوماً مذعورة على صوت زوجها،

وهمسات منبعثة من الغرفة المجاورة لها، ثم وجدته مع إحدى الغانيات،

وجن جنونها،

وصممت على ترك البيت فوراً.

وهجرته. هجرت البيت وكل من فيه.. حتى ابنها، وسافرت من جدة إلى لبنان حيث تقيم أمها..

وأفاقت على فجيعتها وتلك الصور البشعة تملأ عينيها.. والغرفة مظلمة،

وحاولت أن تتخلص من صوت زوجها..

ولكنه يملأ أذنيها والليل حولها شديد الهدوء..

ولم ينقذها من هذه الخيالات والآلام إلاّ ضوء الصبح.

وعاد زوجها يلحّ عليها بالعودة، ورفضت وكتبت له تقول:

«لك الله أيها الزوج العزيز التعس.. لو تعلم إلى أي حد انتهى بك الإثم، وإلى أي طور أخرجك النزق.

لو تعلم أنك قتلت نفساً، وسحقت قلباً ومزّقت ضميراً،

لو ينفذ هذا الشعور إلى نفسك..

لو يستقر هذا الخاطر في عقلك..

إذن لكنت أشقى الناس..

لقد حكمت عليَّ بحرماني من ابني. من الصعب أن أعود إليك، لقد كانت حياتنا سلسلة من العذاب والآلام.

عش كما يحلو لك.. ودعني وشأني.. لحياتي»..

«ساكنة»

واعتادت «ساكنة» على حياتها الجديدة ببيروت بين أمها وأخيها المحامي «سامي».

ولأول مرة ـ بعد عمر طويل ـ شعرت «ساكنة» بالانشراح والسرور.. عندما جلست مع «خامر».

وشعرت أن شخصيته في القمة..

قمة الذكاء..

قمة الطموح..

قمة السعادة..

قمة الشقاء..

وقامت صداقة بين أخته «رابعة» وبينها وأخذتا تتبادلان الزيارات..

ثم تساءلت..

من هو بالنسبة لها؟.. صديق مجرد صديق..؟

هل تحبه..؟

هي إنسانة خيالية حالمة..

رأت عالماً جديداً في عينيه..

هل يمكن أن تقوم صداقة بين الرجل والمرأة..؟

رغم كل ذلك شعرت أنها في حاجة إليه..

ورغم ذلك شعرت بهدوء نفسها..

وشعرت بالسكينة تسكن أعماقها..

وشعرت بقوتها..

بقوة إرادتها على نفسها..

فهي لا بد لها من أن تقاوم هذه الأحاسيس..

ولكن ما هذا..؟

إنها تفتقده..؟!

تفتقد الرجل الذي خلق الدفء في نفسها ولم تعد تحتمل..!

وكتبت له هذه الرسالة:

ـ أيها الصديق لا تستغرب عواطفي، فأنا أعرف حقيقة أحاسيسي وتعلقي بك، أنا متأكدة أنك تحمل لي شيئاً معيناً لا أستطيع أن أحدده.

حزن عينيك يعبر عن شيء..

رنَّة صوتك تعبر عن شيء..

أزح ستار الغيم عن عينيك..

إنك تسكن فؤادي..

اغمرني بعطفك وحنانك..

أزح الحواجز من أمام عينيك..

يكفي أن قلبي قد اختارك..

يكفي أن سعادتي تسكن في عينيك..

يكفي هذا لأتبعك إلى نهاية العالم..

وبعثت بالرسالة وكلها آمال أن تجد لدى «خامر» رداً يرضي نفسها القلقة، وفجأة تذكرت زوجته، زوجة «خامر» ترى ما سبب انفصالهما؟..

وارتعشت أعصابها واختنق قلبها، واغرورقت عيناها بالدموع ـ وتماثلت في خيالها.. الحياة الزوجية وتفجرت زفرات من صدرها.

ونفضت الهواجس الدكناء من مخيلتها..

وهربت من شبح التساؤل..

الحب ليس عاطفة.. الحب إرادة..

الحب ذكاء.. الحب تضحية متعمدة..

الحب احتياج.. دائماً..

الحب..

شخصان.. يروق لهما كل شيء يتفقان عليه.. بطباعهما.. وذوقهما، فيزيلان بإرادتهما أيضاً هذا الشيء حتى يصبح حبّاً، ثم.. بإرادتهما أيضاً.. وبما يبذلان من نفسيهما يستطيعان الاحتفاظ بهذا الحب.

- يا «ساكنة» لابد أن تعرفي الحقيقة، إنني أحب «باسمة» والذي يبني وبينها شيء أقوى من أن يجعلني أتخلى عنها يوماً ما..؟

وصمتت «ساكنة» في ذهول..

وارتفع أنين قلبها..

ثم مرت الأيام، والتقت «ساكنة» بشخص آخر - التقت «بوفيق»..
وكان ما كان بينهما وطلب منها «وفيق» الزواج وكان رد «ساكنة»:

- ليس كل قصة حب تصلح للزواج، الزواج يعني الهدوء والاستقرار.. والأولاد والمستقبل، وحبنا حب جنون.. وغيرة، حب تملُّك، حب لا يحتمل الاستقرار، حبنا ناقص لم يكتمل بعد يا «وفيق».

وأطلت نظرة حائرة من عينيّ «وفيق» وقال:

- لقد مللت مني يا ساكنة.. إنك لا تحبينني، وترددت قليلاً في الإجابة ثم قالت:

- لقد قتلت حبي لك.. بسبب غيرتك، وأطلق وفيق رصاصة من مسدسه على «ساكنة».. ووقعت على الأرض، فسجد «وفيق» أمامها.. ووضع فوهة المسدس صوب رأسه وأطلق.. فوقع على أثرها جثة هامة.

مات «وفيق».. تخلص من وحدته وحرمانه وعقده النفسية، ونقلت «ساكنة» إلى المستشفى حيث أجريت لها عملية إنقاذ سريعة.

وقاست «ساكنة» وتعذبت ومرت بها أيام قاسية وشبح ابتسامة «وفيق» تتراءى أمام عينيها، ولكنها اتخذت بكل ما فيها من ضيق وقلق وإرهاق وملل قراراً بأن تعود إلى الحياة الطبيعية.

وعاد «خامر»، وتصادقت «ساكنة» مع زوجته - «باسمة»، وتزوجت «ساكنة» من «سامح» وذهبت معه إلى باريس حيث مكان عمله.. وجذور حبهما تقوى مع الأيام.. ثم..

لقد عرفت أن «سامح» يريد طفلاً وقد يفكر يوماً في الزواج من «سوزي» لأنها (أي ساكنة) عاجزة أن تنجب أطفالاً..

وعاشت في دوامة من العذاب..

وعادت إلى بيروت إلى بيت أمها..

وصرخت: احميني يا أمي.. إنني أخاف الحياة..

وانهارت «ساكنة» وتفقد وعيها ويحار الأطباء في علاجها..

وعاشت أياماً وفي نفسها شعور بالألم، وحاجة ملحَّة إلى الفرار والاختباء في مكان أمين ـ والابتعاد عن العالم!.

وراحت تقنع نفسها بأن هذه هي الفكرة الوحيدة التي تؤدي بها إلى الراحة.

وحملها إلى الواقع، وأفاقها من حلمها صوت السائق قائلاً:

«لقد وصلنا إلى الدير يا سيدتي».

وأثناء صعود العربة فوجئت بضباب كثيف، وأخذت «ساكنة» تتخيل ما وراء هذا الضباب، ورأت في أحلامها «سامح» يقف متكئاً إلى حائط الدير.. يستعطفها أن تعدل عن قرارها، ثم صوت السائق: «لقد وصلنا إلى الدير يا سيدتي».

وفي الدير.. ذهب إليها «خامر» ولكنها ابتسمت ابتسامة ساخرة وقالت له:

ـ الحياة التي تدعوني إليها.. تافهة..

وشعرت بحاجة ملحَّة إلى أن تكتب «لسامح» كي يسامحها على هجرها له.

وكانت كلما تحس بالضيق تقصد تلك الربوة بعد الأصيل عند انتهاء أعمالها بالدير، وتعاودها الذكرى وتتراءى لها الأطياف.

زوجها.. وما مر بها معه من أيام قاسية، «خامر».. وما تكنُّ له من صداقة وود، «وفيق» ـ وما تحسه نحوه من شفقة لنهايته المفجعة، «سامح».. حبها الكبير.. الذي ضاع مع الأيام!.

وكان صوت «سامح» يراودها في نداء حزين فيه شكاة حزينة.. فيبعث في قلبها حزناً، يقبض قلبها وتتوجه إلى الله بالدعوات والابتهال من أجله ومن أجلها.

ومع مرور الأيام أخذت الأطياف تتبخر، ولم يبق في ذكرى تخيلاتها سوى صورة ابنها، الذي حرمت منه رغم أخباره الطيبة التي كانت تتابعها بشغف من أمها وأخيها عند زيارتهم لها بين حين وآخر.

ومضى على «ساكنة» خمسة أعوام وهي على تلك الحالة.. راضية مقتنعة بدعوتها،

ثم جاء اليوم الذي قررت فيه الجمعية أن تعطي الكلمة الحاسمة.. وقبلت «ساكنة» وانضمت إلى سلك الرهينة،

لقد كانت رائعة في كل شيء.. شعلة من الذكاء، نشيطة، طيبة القلب مما جعل الجمعية تتخذ قراراً للسعي لها في أن تنتقل إلى البلاد العربية، للتجول والتدريس في المدارس التابعة لها.

وحزنت حزناً شديداً لفراق الدير.

وإذ هي تقف وتنظر إلى الأفق البعيد، يحوم حولها الضباب ولا تكاد ترى شيئاً أمامها ولا خلفها.

وتتلاشى «ساكنة» وراء الضباب ورأسها مرفوع نحو السماء..

وعيناها تتطلع إلى الرب..

اللهم إنك حرمتني السعادة..

وحتى الدموع..

ولكن بذكراك جعلتني أصمد وأقاوم..

اللهم إنني لا أعجز عن احتمال الشقاء..

الدائم الأبدي..

ولكنني أعجز عن احتمال السعادة..

المنقطعة!

* * *

- و«سميرة» بنت الجزيرة العربية.. سعودية الأصل والمنبت من المدينة المنورة، وهي من مواليد مكة المكرمة.. عام ١٩٤٣م - أتمت دراستها الثانوية بالمدرسة الإنجيلية للبنات بالإسكندرية وحصلت على بكالوريوس في الاقتصاد من جامعة الإسكندرية.

وعندما ظهر كتابها الأول.. «ودَّعت آمالي» عام ١٩٥٨م - عجب القارىء لهذا الاسم الذي اتخذته الأديبة «سميرة» بنت الجزيرة العربية.

وتنبأ لها من طالعه بمستقبل زاهر في دنيا القصة والأدب.

وكان مما دعا سميرة إلى عدم ذكر اسمها الاعتبارات العائلية والتقاليد المتوارثة.

وسميرة هي كريمة الدكتور محمد خاشقجي، ولقد زالت تلك التقاليد وانمحى شأنها ولم يعد يعيب الفتاة في الجزيرة العربية أن تشارك في إرساء نهضة بلدها وتطوير مجتمعه.

لقد شهد مجتمع الجزيرة في السنوات الأخيرة تقدماً ملموساً، فساير ركب القرن العشرين وأفسح المجال للفتاة أن تعمل.. وأن تنتج - وأن تشكل في مجتمعها الجديد عنصراً نشيطاً فعالاً متحرراً.

وقصة «وراء الضباب» قصة عاطفية واقعية.. تعتبر من أعمق وأروع ما كتبت «سميرة» بنت الجزيرة العربية.

* * *